مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ المجلد ١١ (العدد ٤) . ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م

الحس المأساوي
في أدب أبي حيّان التوحيدي

الدكتور عبد الفتاح نافع
أستاذ مساعد في كلية الآداب
بجامعة اليرموك
اربد ـ الأردن

عاش التوحيديّ في القرن الرابع الهجري . وشهد فترة الانحطاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والخلقي ،وما تبع ذلك من فقر واستبداد وخوف وقهر واضطهاد . فكان شاهدا على مأساة العصر . فسرت في نفسه روح الكآبة وتعمق فيها الشعور بالأسى،وهو يرى الفقر المدقع وطغيان المادة وسقوط المثاليات واستشراء النفاق. فانطلق في أدبه يعبر عن مأساة الانسان المتطلع للمثال الباحث عن الحقيقة .

وقد ترك فقره الشديد أثره على رؤيته للحياة والأحياء ،وعمّق لديه الاحساس بالتشاؤم وتفاهة الحياة . وحاول عن طريق طموحه العظيم وقدراته الفكرية أن يتغلب على الاحساس بمرارة الفقر . فعاش أزمة المادة وعاش أزمة الفكر . وسعى جاهدا للوصول الى بلاط الكبراء فأخفق في أن يجد المكانة التي تليق به وبأدبه . وشاهد اضطهاد العلماء والأدباء والمفكرين من قبل ذوي النفوذ،فعمّق هذا شعوره بالمأساة ،وزاد هذا الشعور حدّة ما رآه من نفاق أدبي وتزلف وترد بالأدب لارضاء فئة معينة . وعمّقت هذه الأمور أزمته النفسية،فساءت نظرته الى عصره والى أناسه . وانكفأ على نفسه ليصور خلجات الذات الانسانية وأخيلتها وتطلعاتها دون خوف أو تردد . وما نبشت أزمته النفسية أن جعلته غريبا في كل شيء ،في أدبه وخلقه ،في تدينه وتصوفه ،في فلسفته وفنه . وانقطعت الصلة بينه وبين الوجود،وبينه وبين الاحياء ،فانخلع عن عصره،ليعيش في ذاته يكشف عن معاناتها وخفاياها وأطوارها في تأمل صوفي . فصوّر مأساة الفرد في نفسه وفي مجتمعه ،وصوّر الشقاء الانساني في أمور الحياة وشؤون الفكر على اختلاف العصور .

شهد القرن الرابع ـ عصر التوحيدي ـ تمزق الدولة العباسية الى دويلات مستقلة أو شبه مستقلة ،وانحسار سلطة الخليفة العباسي . وتبع تفكك عرى الخلافة ضعف في السلطة ،فانتشرت الفوضى ،وذاعت الفتن، وعم الاضطراب في ارجاء الدولة ،واستأثر العنصر الفارسي بالحكم ،فصبغ الدولة بصبغته ،وزحزح العرب عن مكانهم ونافسهم في لغتهم شعرا وأدبا وتأليفا .

وتبع الانحطاط السياسي فوضى اقتصادية واجتماعية ،فشاع الخوف وانتشر الظلم وفقد الأمن والاستقرار [1]. وحدث تباعد هائل بين الطبقات نتيجة سوء توزيع الثروة العامة ،فغني فريق ،وحرمت الغالبية ـ بمن فيهم المفكرون ـ من القوت الضروري ،فظهر العيارون الذين دبوا الفزع في كل مكان ،وخرقوا هيبة السلطان، واراقوا الدماء ،ونهبوا ما استطاعوا ان ينهبوا [2]،وكان لتفشي ظاهرة الاقطاع وكثرة الضرائب والمصادرات أثره ،فساءت

أحوال الناس وأصبحت الأمة كما يقول التوحيدي " في عيش نكد وشؤم شامل وبلاء محيط وغلاء متصل، ودرهم عزيز، ومكسب دنس - وخوف غالب " (٣). وتبع هذا انحطاط في القيم وفساد في سوء نظرة الناس للدين، فأصبح وقد " أخلق لبوسه وأوحش مأنوسه، واقتلع مغروسه، وصار المنكر معروفا والمعروف منكرا " (٤) وبعد ان " كان الناس يتقلبون في بسيط الشمس (أعني الدين) فغربت عنهم، (اعني الجهل وقلة الحياء) فلا جرم اعضل الداء، وأشكل الدواء، وغلبت الحيرة، وفقد المرشد، وقل المسترشد " (٥).

ومن المفارقات أن هذا الانحطاط السياسي والخلقي والاجتماعي والاقتصادي رافقه رقي عقلي عظيم، فالقرن الرابع أغنى القرون معرفة وثقافة، وأكثرها علماء وأدباء وفلاسفة، وأغزرها انتاجا وأعظمها ابتكارا. فقد ظهرت فيه المعاجم اللغوية والكتب المؤرخة والموسوعات العلمية الكبرى، ونضجت الفلسفة، وشهد العصر مرحلة الصراع الفكري بين مختلف المذاهب والنحل.

ويبدو أن الاستبداد والقهر والخوف جعلت كثيرا من العلماء والمفكرين والأدباء يحجمون عن المشاركة في الحياة العامة، ويبتعدون بأنفسهم عن السلطان خوفا من العواقب واذلال النفوس، فانكفؤوا على نفوسهم، يبحثون، وينقبون، ويفكرون، ويشغلون أنفسهم بهذه المناقشات العلمية والمحاورات الفكرية، فيشبعون أرواحهم بعد أن خويت معدهم (٦).

وإذا كان الخوف قد أوجد مثل هذا المنحى الايجابي، فقد كان له منحى سلبي خطير. فالأدباء الذين تجمعوا في قصور الخلفاء والأمراء، عاشوا في جو من الدسائس والمؤامرات والتناحر والتملق، فبعدوا عن المثالية، وسقطوا في هوة النفاق طمعا في الوصول الى الشهرة. فغلب التكلف على أدبهم، وفقدت العاطفة حرارتها، وأصبح التسول مهنة تحترف. ورافق هذا شك في العلماء وسلامة آرائهم وبعدهم عن التحيز " فلم يبق من يرضى هديه أو يقتبس علمه، أو يخطب عرفه، أويقتفى جوده، أو يقدح زنده، أو يستفاد لفظه، أو يتوخى معانه، أو يعرف حده، أويعرض أدب من الآداب عليه ". (٧)

وكان التوحيدي شاهدا على مأساة العصر، فتأثر بروح العصر ومجرياته، فسرت فيه روح الكآبة، وتعمّق فيه الشعور بالأسى، وهو يرى الفقر المدقع، وطغيان المادة، وتحطم المثاليات، واستشراء النفاق وكان أكثر الأدباء فهما لزمانه وأناسه، وأكثرهم ادراكا لمفهوم الواقع والمثال. فانطلق في أدبه يعبر عن مأساة الانسان المتطلع للمثال المنشود، الباحث عن الحقيقة، المشدود الى الواقع المرفوض. فعاش عذاب المجموع، وعاش عذاب الفرد، فجاء أدبه صورة للشقاء الانساني في الحياة المادية وفي حياة الفكر.

١ - التوحيدي بين أزمة المادة وطموح الفكر.

لم يكتب للتوحيدي أن يكون على جانب من الثراء يغنيه عن ذل السؤال. أو أن يكون من أسرة عريقة ذات انتماء تأخذ بيده، فتحول بينه وبين السقوط في هوة الفقر المدقع. أشقاه الفقر وأضناه، حتى لم يعد يُرى إلّا مع " الغرباء والمجتدين والأدنياء الأردياء " (٨) وكأنه وجد في هؤلاء بديلا عن الثروة وشرف الانتماء.

عاش التوحيدي في عصر مادي مضطرب، حيث " بارت البضائع وغارت البدائع، وكسد سوق العلم، وخمد ذكر الكرم، وصار الناس عبيد الدرهم بعد الدرهم " (٩). ولم تقم مهنة الوراقة التي مارسها بسداد رمقه لضؤولة موردها وقلة جدواها (١٠) فلم يكن

يظفر بقوته الضروري،وغذا" يأكل الكسيرة اليابسة ،والبقيلة الذاوية ،ويلبس القميص المرقع ،ويتأدم الخبز والزيتون،وينفق أربعين درهما في الشهر"(١١) . ولا يفوز بالبلغة من العيش" إلاّ ببيع الدين،واخلاق المروءة ،واراقة ماءالوجه ،وكد البدن، وتجرع الأسى،ومقاساة الحرقة ،ومضّ الحرمان والصبر على ألوان وألوان"(١٢) . ورسخت الفاقة في نفسه شعورا بالمرارة والقرف، وتمنى الموت (١٣)،ذلك أنها اضطرته أن يروّض نفسه على التضرع،وأن يغرق في التملق (١٤) . كما ترك الفقر أثرا عميقا في نفسيته وفي رؤيته للحياة والأحياء، فعمّق لديه الاحساس بالتشاؤم وتفاهة الحياة ،وجعله ينتحل القناعة رياضة ، ويدرع الصبر،ويتخذ الانقباض صناعة (١٥). وكان لهذا كله مردود على الأدب ،ففاضت نفسه بنقائض المجتمع والأفراد،وسجل مآسي العصر في أخلاق ملوكه ووزرائه وكتّابه ،كما صوّر حالة البؤس والهوان التي انحدر اليها الناس ومنهم المفكرون وأهل الأدب . ولعل كثرة الأبواب التي عقدها عن المطعمين والطاعمين ،وأحاديثه فيها عن ألم الجوع والحرمان وضنك المعيشة، وأثر ذلك في النفس البشرية ،في تصرفاتها واتجاهاتها،دلالة واضحة على أن الرجل سخّر قلمه للحديث عن هذا الجانب المأساوي تسخيرا رائعا . فنفذ الى دخائل النفوس، وتحدث عن انعكاسات الجوانب الاقتصادية على اتجاهات الانسان ونوازعه (١٦).

واذا كان التوحيدي قد أكثر من التشكي والتظلم وادعاء الحرف والسقم والعجز في ثنايا كتبه ،فليس ذلك من قبيل الوسواس(١٧) فالظاهرة كانت تملأ عليه كيانه وحسه، وتشغل القطاع الأعظم من الناس ،وتمثّل سمة رئيسة من سمات العصر. فاذا جاء في أدبه ما يشعر بالاستجداء وهوان الشخصية ، فانما هو في الحقيقة يعكس ما كان يجده العلماء والأدباء، بل وعامة الناس من معاناة في تحصيل لقمة العيش . ويقدم صورة حية للمفارقات العجيبة في الحياة المعيشية، حيث " أناس يرفلون في الدمقس والديباج ،وطبقة لاتكاد تجد مايستر عورتها،طبقة تعيش في بذخ وترف ،وطبقة لاتكاد تجد ما يمسك رمقها،ويقيم أودها"(١٨) وبحيث يمكن أن نؤكد أنه لم يكتب في النثر العربي ما هو أقوى وأشد تعبيرا عن شخصية صاحبه ، أو تصوير شخصيات الناس مما كتبه أبو حيان (١٩).

واذا كان الفقر قد حال بين التوحيدي رفاهة العيش، فقد ساهم في طموحه الفكري واتجاهه نحو مناهل العلم والأدب . واذا كانت حرفة الوراقة لم تشبع نهمه المادي، فقد كان لها فضل كبير في اثراء نهمه الفكري . فقد أوصلته بعالم الفكر والأدب، فاتصل بأمهات الكتب،ينسخها ،ويدرسها، ويلخّصها، ويقتبس منها ،كما وصلته بعلماء وفلاسفة كبار تعاطوا هذه الحرفة، من أمثال السيرافي ويحيى بن عدي . ووصلته بالخاصه من وزراء العصر وأصحاب السلطان، لاسيما الكتاب والأدباء منهم . هذا الى جانب أنها أيقظت فيه الحاجة الى دراسة منظمة على أيدي أساتذة عظام، استقطبوا معارف عصرهم ،وأغنوا التراث العربي بنتاج قرائحهم (٢٠)،فمنهم أبو حامد المروروذي ،وكان اماما لايشق له غبار في فقه الشافعية (٢١) ومحمد بن علي إسماعيل القفال أوحد عصره في الفقه والكلام والحديث واللغة والأدب (٢٢) والمعافى بن زكريا النهرواني القاضي،وكان اماما في النحو واللغة وأصناف الأدب متفننا في جميع العلوم (٢٣) ،وأبو بكر الشافعي حيث درس عليه الفقه والحديث والقرآن والتصوف واللغة، وأبو سعيد السيرافي أعلم الناس بنحو البصريين (٢٤) وهو في نظر أبي حيان شيخ الشيوخ وامام الأمة في النحو والفقه واللغة

والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة [٢٥].

والرماني علي بن عيسى، أحد متكلمي المعتزلة وكان اماما في العربية والأدب. وأبو سليمان السجستاني أدق الأساتذة نظرا وأصفاهم فكرا [٢٦] وكان عالما في المنطق والفلسفة نقل عنه التوحيدي آراء أرسطو وأفلاطون في المقابسات، ويحيى بن عدي المنطقي أوحد دهره في صناعته [٢٧] حيث قرأ التوحيدي عليه كتب اليونان وحضر مجالسه ونعته بالأستاذية [٢٨].

وكان لهذا التنوع في شيوخه واتجاهاتهم الفكرية أثره العظيم في فكر التوحيدي وأدبه، فجعل منه عالما موسوعيا "متفننا في جميع العلوم، من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام" [٢٩] كما جعله بارعا في الفلسفة، فمزج بينها وبين الأدب فكان" فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين، فرد الدنيا الذي لانظير له ذكاء وفطنة وفصاحة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراسة والرواية" [٣٠] وأضحت ثقافته تمثل أرقى ماوصلت اليه ثقافة أديب أو دقة باحث في عصره، ورزقته سعة اطلاعه قدرة عظيمة على التوغل في أعماق النفس البشرية، فتحدث عن أخلاقيات الانسان ومشاعره وشجونه وهواجسه، وتناول المعاني الانسانية بمفارقاتها في تحليل عجيب وسبر للذات الانسانية لانكاد نجد له نظيرا في النثر العربي [٣١].

واذا كانت ثقافته الواسعة قد خلقت منه شخصية فريدة في الأدب والبحث والتأليف [٣٢]، فقد رسخت أيضا في نفسه لونا من الاعتداد والتباهي بعلمه، وسما به طموحه، فلم يستطع في أحيان كثيرة أن يكتم شعوره بالتفوق ورغبته في أن يتبوأ المكانة اللائقة به [٣٣]. ولعله كان يرد بقوة على هؤلاء الذين بخسوه حقه، وتغافلوا عن فضله وتجاهلوه " ولم أر أحداً من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا دمجه في ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب" [٣٤].

كان التوحيدي يشعر بمرارة أنه لايقل عن ابن العميد والصاحب بن عبّادوأبي إسحق الصابي وابن سعدان وعبد العزيز بن يوسف. وقد نال هؤلاء حظوة في الدنيا، واستوزر بعضهم، ولم يبلغ هو منزلة كاتب في ديوان إنشاء! وكان طموحه العظيم يدفعه الى التنقل والارتحال بمناحي المملكة الاسلامية سعيا وراء حظه وعيشه وأمله. ودفعه طموحه الى الاتصال بالوزراء ـ ولاسيما العلماء والأدباء منهم ـ فاتصل بالوزير المهلبي وابن العميد وابن عبّاد وابن سعدان .. ويخطئ من يظن أن اتصاله كان لغرض مادي بحت، وأنه كان يتمرغ على أعتاب الوزراء وذوي النفوذ مستجديا ذليلا [٣٥] فالمال لم يكن مطلبه الوحيد، بل كان الى جانبه سعي دائب الى الوجاهة والتقدير وعلاء المكانة وحسن المكافأة، وكان كلما يئس من تحقيق هذه الأمور غادر مكان اقامته ذاما ساخطا [٣٦].

قصد المهلبي، فلم يكرم لديه، ولم يطق المهلبي طريقته في الجدل، واتهم لديه بخبث الاعتقاد والقدح في الشريعة والقول بالتعطيل، وخشي على نفسه فتركه [٣٧]. وارتحل الى ابن العميد آملا أن يجد لديه مايرد غائلة الفقر ويخفف وطأة الحاجة، ويشبع طموحه العلمي ـ وقد كان يقدر العلماء [٣٨] وعرف باعتزازه للأدباء [٣٩] ـ وكان أوحد العصر في الكتابة، وكان يدعى الجاحظ الأخير، والأستاذ والرئيس، ويضرب به المثل في البلاغة [٤٠] فلقي لديه امتهانا واحتقارا، ربما بسبب

هيئته ومظهره[41] وربما لعدم قدرته على مخالطة الكبراء ومحاورة الوزراء[42]، وربما لأنه ساءه ماعليه التوحيدي من اعتداد بنفسه واستطالة على غيره .

وقصد الصاحب بن عبّاد الوزير العالم الأديب" وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء. وحضرته محط رحالهم، وموسم فضلائهم ،ومترع آمالهم، وأمواله مصروفة اليهم"[43] فعامله بطلافة واحتقار واستكثر عليه أن يقف احتراما له " اقعد فالوراقون أخس أن يقوموالنا"[44] وعهد اليه بنفس حرفته - حرفة الشؤم، الوراقة ،فأمره بنسخ ثلاثين مجلدة" وأي انسان ينسخ هذا القدر وهو يرجو بعده أن يمتعه الله ببصره أو ينفعه بيده"[45]، وبقي في خدمته ثلاث سنوات يكتب وينسخ دون أن يعطيه درهما واحدا أو ماقيمته درهم،مما أحفظ التوحيدي عليه فلجأ الى ثلبه[46].

واتصل بالوزير ابن سعدان وخدمه وكتب له ،فماطل في منحه حقوقه،وظل طيلة اقامته لديه مهددا بالطرد والحرمان[47].

لقد كانت ثقافته وعلمه وأدبه وفكره تغذي طموحه العظيم ،وتقف سدا منيعا بينه وبين اذلال نفسه واستخذائها في بلاط وزير أو أمير،وكان فقره المدقع وشغفه بالوصول ،يدفعانه باستمرار الى التشبث بالأمل في قوة واصرار والحاح ،بلغ حد الاسفاف والتوسل[48]. وعندما نال جائزة الحرمان، وتحطمت الصورة المثال أمام عينيه انطلق يعبر عن مشاعره والآمه مهاجما ساخطا، ومن الظلم أن نؤيد من يذهب الى أن" الذم شأنه والثلب دكانه "[49] أو أنه كان موتورا مبغضا حاقدا[50]. فهو حقيقة لم يرحم كثيرا ممن اتصل بهم، فسلقهم بلسانه ،ولكنه في ثلبه انما كان يصف معاناة،ويصور مأساة العلماء في بلاط الوزراء والأمراء. ولعل مايشفع لهذا الرأي أنه لم يغفل مزايا من ثلبهم، بل ذهب يوازن بين عيوبهم ومحاسنهم في الخلق والأدب والعلم والفصاحة ،واعترف بفضلهم في كثير من الأحيان[51]. وذكر أن الغاية من ثلب الأمراء أو الوزراء ليس الاساءة والحقد وحب التجريح بل"وتأديب النفس واجتلاب الأنس،واصلاح الخلق،وتخليص ماحسن مما قبح"[52]. وأن أشد مايؤلمه ان يأتي النقص ممن يدعي الكمال أو الكرم أو العلم" فالنقص ممن يدعي الكمال أشنع، والحرمان من السيد المأمول فاقره ،والجهل من العالم منكر،والكبيرة ممن يدعي العصمة جائحة ،والبخل ممن يتبرأ منه عجيب"[53].

والعبارة هنا شديدة الدلالة والايحاء على الأمل الذي كان يعمر قلبه ،وهو يقصد هذه الفئة من الوزراء والأمراء طامعا في مالها وعلمها وكرمها ،ثم على الصدمة التي فوجىء بها،والتي لم يكن يتوقعها،فغرست في نفسه من المرارة بالقدر الذي كان فيها من أمل،كما أن طبيعته المجبولة على الصراحة ،المشبعة بروح العلم،تأبى السكوت على الخطأ أو الرضا بهضم الحقوق في عصر فيه من التسلط والقهر مايوجب على العاقل ألا يقف صامتا "فمن جعل نفسه شاة دق عنقه الذئب .. ومن نام على قارعة الطريق دقته الحوافر دقا ."[54] فالفقر مؤلم حقا،ولابد للانسان ممن يعينه على الدهرفبنيته متهافتة،وطينته منتشرة ، وله عادة طالبة وحاجة هاتكة ونفس جموح وعين طموح ،وعقل طفيف ورأي ضعيف"[55] وفقير هذه الشاكلة فقير من جهة العرض ،فأما الفقير الحقيقي فالذي شهواته كثيرة،وان كان كثير المال،كما أن الغني الطبيعي لايحتاج الى شيء،وان كان

قليل المال، أي الذي ملك نفسه ،وقمع شهواته ،وأخمد لهب ارادته "[٥٦].لقد كان التوحيدي يشعر في قرارة نفسه بالحرمان . وكانت أزمة المادة تطارده في حله وترحاله ،وكان يشعر في أعماقه بتفوقه وامتيازه ،وكان يرى أن كبرياءه تتثلم أمام الكبراء،وطموحه العظيم يتحطم على صخرات من اليأس والبؤس. وكان يشاهد بمرارة ظفر غيره بالمناصب ووصولهم الى أعلى المراتب،في حين يحرم هو من لقمة العيش مع ذكائه وقدراته الفذة .

كان غيره أكثر قدرة منه على التنفيذ وافتعال العلاقات ومعرفة طرق الوصول،وكان هو أكثر منهم معرفة وثقافة وعلما . ووصل المفتعلون وحرم الأصلاء. وبين الطموح والحرمان هوة هائلة من التناقضات والمفارقات عاشها التوحيدي بنفسه وبأدبه .

٢ ـ التوحيدي بين أنانية الكبراء ونفاق الأدباء .

سعى التوحيدي ما استطاع لطلب المثالة بين الناس "ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم"[٥٧]. فحرم من ذلك . ونظر حوله فوجد أن المشكلة عامة ،بل هي مسألة المسائل . انها مشكلة العلماء والأدباء المتفوقين الذين يعانون البؤس والحرمان والتحقير والاهانة ،في حين يتبوأ التافهون مراتب الرياسة والشرف في الدنيا . فأستاذه أبو سليمان المنطقي، سيد علماء عصره " بحاجة ماسة الى رغيف وحولُه وقوّتُه قد عجزا عن أجرة مسكنه ووجبة غذائه وعشائه "[٥٨].

وجاره وصديقه ابن يعيش اليهودي ظاهر الخصاصة لاصق بالدقعاء[٥٩]. وأبو بكر القومسي الفيلسوف " وكان بحرا عجاجا وسراجا وهاجا من الضر والفاقة ومقاساة الشدة بمنزلة عظيمة "[٦٠]. وابن المستنير الذي يتتلمذ على السيرافي ذوفقر مدقع وضر ظاهر وحالة سيئة وأمر مختل،ومعيشة ضيقة ،وكثرة عيال[٦١]. والمعافى ابن زكريا النهرواني شاهده تلميذه التوحيدي في جامع الرصافة" وقد نام مستدبر الشمس في يوم شاتٍ،وبه من أثر الفقر والبؤس أمر عظيم مع غزارة علمه ،واتساع أدبه ، وفضله المشهور"[٦٢].

وأبو سعيد السيرافي" عالم ،وشيخ الدنيا. ومقنع أهل الأرض"[٦٣] ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشر دراهم ليعيش[٦٤].

والفيلسوف يحيى بن عدي يكتب في اليوم والليلة مئة ورقة وأكثر[٦٥]. وكان التوحيدي يشعر شعورا حادا بأن هناك علاقة وجدانية تشدّه نحو الأدباء والعلماء الفقراء ،فهو يأخذ آراءهم ،ويعجب بهاء ويشاركهم فكرهم ورؤيتهم للحياة تماما كما يشاركهم بؤسهم وشكاواهم. فهويستمع الى القومسي الفيلسوف والى شكواه من الحياة وسوء الحظ" ماظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من انسان مابلغ مني ، ان قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها،وان خرجت الى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلدا أملس، فيرد التوحيدي عليه في مناجاة رائعة " ما أعرف لك شريكا فيما أنت عليه وتتقلب فيه وتقاسيه سواي ،ولقد استولى عليّ الحرف،وتمكّن مني نكد الزمان"[٦٦] ويستمع الى أبي بكر محمد بن العباس الشاعر الخوارزمي يقول " اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت ،وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ،ولاتمتني حتى يبور الجهل كما بار العقل ،ويموت النقص كما مات العلم" ،فيرد التوحيدي" اللهم اسمع واستجب ،فقد برح الخفاء،وغلب الجفاء، وطال الانتظار،ووقع اليأس ،ومرض الأمل وأشفى الرجاء"[٦٧].

والخوارزمي الذي يعجب به التوحيدي، ويتأسّى به رجل عانى من دهره مرارة الجور،ورأى الناس يقدمون عليه بديع

الزمان وهو لدن العود غضّ الاهـــــاب . والتوحيدي بترديد شكاته رأى فيه نفسه، وقد قدم الناس عليه أمثال ابن عباد (٦٨).

وكان التوحيدي يشق عليه ما تعاني هذه الفئة من العلماء ،ويكاد يقتنع أن الأمر في بؤسهم وشقائهم انما يعود الى أولى الأمر من الوزراء والأمراء ،الذين لا يكفونهم عيشهم ،ولايقدمون لهم مايسد حاجتهم ،ليتفرغوا الى علمهم وأدبهم . كما كانت تشق عليه هذه المزاجية التي تتحكم بالأمراء والوزراء ،فتجعلهم يعيشون في أنانية مطلقة ،وتتحكم بهم المادة والطمع وحب التزلف . وتقودهم الى ازدراء العلماء ومعاملتهم باحتقار. فالصاحب بن عبّاد شديد السفه " عجيب المناقضة ،سريع التحول من هيئة الى هيئة مستقبلا للأحرار بكل فرية وفاحشة .يستمع للعلماء والشعراء ويوهمهم بالعطاء السخي، ثم ينهال عليهم شتما وتوبيخا ،ويأمر بحبسهم وضربهم (٦٩). وابن العميد يطرد في عشية من عشايا رمضان شاعرا غريبا صائما لايجد مكانا ينام فيه، ويمدحه شاعر من الكرخ ،فلا يجيزه رغم توسل الشاعر والحاحه ومطالبته بحقه أمام الحضور (٧٠)، ويجتاز به أبو إسحق الفارسي ،وكان من غلمان أبي سعيد السيرافي ،وكان ملما بالكتاب ،وقرض الشعر ،وصنف وأملى وشرح وتكلم في العروض والقوافي والمعمى ،وناقض المتنبي ،وحفظ الطم والرم فما زوده درهما ولا افتقده برغيف بعد أن أذن له ،وسمع كلامه ،وعرف فضله ،واستبان سعته (٧١).

والوزير ابن العارض يعلم تماما درجة ابي سليمان المنطقي في العلم والحكمة ، ومع ذلك لايدنيه من مجلسه ولايصبر عليه لعيب لحق بعينه (٧٢).

لقد سيطرت نظرة الاستعلاء على الأمراء والوزراء والقادرين على العطاء، فشمخت نفوسهم ،فغرقوا في بحر أنفسهم ، ولم يعودوا ينظرون الى بني جنسهم (٧٣). وهذه الأنانية المفرطة والبخل ،رغم القدرة على العطاء ،خلقا في نفوسهم حب الرياء، بل والاستمتاع بالتملق ،فلم يعودوا يستمتعون بطعم الولاية الا بما يسمعونه من نفاق واطراء (٧٤).

وقد فزع التوحيدي من هذه الظاهرة ، وكررها في أكثر من مكان في كتبه ،فقد رأى أن انعكاسها على الأدب والعلم خطير، فقد أفسدت البيان والبلاغة على الناس (٧٥). وكان لها تأثيرها في انحطاط الأدب، فابتعد عن غايته المثلى ،واتجه نحو ارضاء هذه الفئة بالمماراة والنفاق. فابن عبّاد لم يعد يرضيه من العلماء علمهم ،ولامن الأدباء أدبهم ،بل" ان كذبوه، وخدعوه ،وموهوا عليه ،ونافقوه، وتملقوه قرّبهم وأدناهم ،وأكرمهم وأعطاهم، وان صدقوه ،وماتنوه ،وثبتوا له ، أبعدهم، وأقصاهم ،وحرمهم ،وأخزاهم" (٧٦) فاقبل العلماء عليه " يدّعي له التبريز في كل علم ،وهو لايعرف النحو إلّا جل منه ،ومن الكلام إلّا وضح ،ثم هو في اللغة على تصحيف شديد ،وتخليط كثير، وفي الأخبار على تمويه لايخفى على مميز" (٧٧) ولم يعد يتقدم عنده إلا" الهوج الطغام الذين يجوبون الدنيا ،ويدخلون كل ميدان، ويسخرون منه ،فيقولون ،فعل مولانا ،وكان مولانا ،وما رأينا مثل مولانا (٧٨).

وابن العميد ينهج نفس النهج ،ويسلك نفس السلوك ،فيطرب لذل الشعراء وتوسلهم لعطائه " أيها الرئيس : قد لزمت فناءك لزوم الظل، وذللت لك ذل النعل ،وخدمت أملي فيك خدمة ناصح لنفس فيما التمست من الصلة والجائزة ،ولك فيما أوفدت عليك من الثناء والمدحة " (٧٩).

واستشرى داء النفاق الى الصوفيين والزهاد مع تدينهم وتقشفهم ،ورغم علمهم برقاعة من يمدحون أو يتملقون (٨٠).

واذا كان التوحيدي يرى أن أنانية الأمراء والوزراء وذوي الشأن تكمن خلف موجة النفاق الأدبي والعلمي، فانه لاينكر أثر الفقر في هذه الظاهرة وتفشيها، "فجرعة الحرمان أمرّ من جرعة الشكل، وضياع التأميل أمضّ من الموت، وخدمة من لم يجعله الله أهلا أشد من الفقر" (٨١). ويرى أن الفقر بمآسيه، يدفع الأديب دفعا الى المبالغة والتهويل وقلب الصور واخفاء الحقائق، فيقدم على هذا مع ألمه الشديد بسوء ما يفعل" وصاحب الفقر ان مدح فرط، وان ذم أسقط، وان عمل صالحا أحبط، وان ركب شيئا خلط، ولم أر شيئا أكشف لغطاء الأديب ولا أنشف لماء وجهه، ولا أذعر لسرب حياته منه؛ وأن الحر الآنف والكريم المتعيف من تعاساته والتجلد عليه، لفي شغل شاغل وموت مائت". (٨٢) فليس هناك أشد من خطر الفقر في الأدب والدين وعزة النفس، اذيجعل الشاعر " يجمع دينه ومروءته في قَرَن تهاوناً بهما، وعجزا عن تدبيرهما، فهو لايكترث كيف أجاب سائلا، وكيف أبطل مجيبا، وكيف ذم كاذبا ومتحاملا، وكيف مدح موار با ومخاتلا". (٨٣)

والفقر نفسه، هو الذي يدفع الشعراء والعلماء الى أن يتزاحموا على أبواب الوزراء والأمراء، ويقبلوا أن يقرعوا بالعصي (٨٤). وهو نفسه الذي يدفعهم الى التزاحم على أبواب بعض الوزراء مع رقاعتهم وجنونهم (٨٥) ويدفع بالمتصوفة الى التحامق والتخلي عن المبادىء (٨٦).

ويدفع الشعراء الى الشتم للحصول على المال (٨٧).

واشكالية الفقر وما ينجم عنها من اراقة ماء الوجه، هي التي دفعت التوحيدي الى أن يقف معتذرا بحرارة للأدباء الفقراء اذا ماالتمسوا طعامهم بالشتم والتجريح، وجعلته يرفض هذا النصح والوعظ الموجه من الحكماء الى الفقراء بضرورة التحلّي بالصبر" فليس المضطر كالمختار، ولاالمحرج كالسليم، ولاالموفور كالموقور" (٨٨).

ويرى في عطاء الأمراء والوزراء واجبا وحتمية وحقا، ذلك أن هؤلاء الأدباء وصفوا محاسنهم، وستروا مساوئهم، واحتجوا لهم، بل واضطروا الى الكذب والنفاق من أجلهم، ومن ثم فإثابتهم دين لابد من سداده (٨٩)، فاذا ماحرموا من حقوقهم، فيجب ألايؤاخذوا اذا ماتجهوا اتجاها حاقدا أوشامتا، فذلك فيه شفاء لأنفسهم وبرد لغليلهم (٩٠).

واذا كان التوحيدي يعتذر للأدباء الفقراء، لأنه عاش التجربة نفسها واضطرته الفاقة أن يبتلى بالوقوف أمام من لايستحق، الا أنه حريص كل الحرص على صيانة أدبه من السقوط، ويلح على ضرورة التلازم بين شخصية الأديب وبين أدبه " فالكاتب الحر لايقبل الرياء ولاالذل بأي من الأحوال" ولعن الله الأدب اذا كان بائعه مُذيلا له، ومشتريه مهينا لقدره، ومماكسا فيه (٩١). حقا ان الصبر على الرقاعة محمود، ومكاذبة النفس وخداع العقل من الكلف الشاقة والأمور الصعبة، ولكن" لعن الله الرغيف اذا لم يصب الابضعة النفس، وغضاضة القدر، وكدالروح ومفارقة الأدب الحسن ودنس العرض النقي وتمزيق الدين المعتقد، وكسب المزور المحبط" (٩٢).

ومن هنا كان اعجابه بأبي بكر القومسي الفيلسوف الذي رفض - رغم معاناته - أن يقصد ابن العميد وابن عبّاد قائلا" معاناة الضر والبؤس أولى من مقاساة الجهال والتيوس، والصبر على الضيم والوبيل أولى من النظر الى محيّا كل ثقيل" (٩٣). لقد قصد التوحيدي ابن عبّاد ليعينه على فقره مقابل أدبه وعلمه ومساعدته، فكلّفه ما لاطاقة له به، وفوجئ بطباعه

الحادة ورغبته بالتملق والنفاق. وحز في نفسه أن يستخف بأدبه، فتجرّأ على الصاحب في مجلسه، وتباهى بعلمه، وطعن في رسائله(٩٤) وسخط على أسلوبه في السجع(٩٥) واستخدام الغريب والعويص(٩٦)، وعجمته المخلوطة وعربيته المخلوطة بالتعجيم(٩٧). وتجاوز الحدّ في مجلس ابن سعدان، فتحامل على ندمائه من العلماء والأدباء الذين ألفوا التزلف والتودد من أجل المال(٩٨). ورفض أن يعمل لديه ساعيا ناقلا يفشي ما يقوله العلماء(٩٩). وطلب من الوزير ابن العارض أن يؤذن له في كاف المخاطبة وتاء المواجهة في حديثه معه " حتى يركب جدد القول من غير تقيّةٍ ولاتحاشٍ ولامحاوبة ولا انحياش"(١٠٠).

ولم تكن تصرفات أبي حيّان في مجالس الكبراء على هذا النحو بسبب عدم لباقة في التحدث الى الكبراء أو لسذاجة وقلة دراية بآداب المجالس(١٠١) بل هي في حقيقة الأمر بذور ثورة كانت تعتمل في نفسه تجاه مايرى في مجالس الوزراء من مجون وعبث واستهتار بالعلم وأهله. ثم مايراه من نفاق ورياء وتزلف يفصل بين الأديب وأدبه، ويقتل مواهب الأدباء، ويجعل الأدب خادما لأنانية الأمراء بدلا من ان يكون في صالح المجموع معبرا عن المثال.

واخذت بذور ثورته النفسية تنمو، وتمتزج، وتتفاعل، لتشكل لديه نظرة معينة ومسلكا خاصا تجاه الحياة والأحياء.

٣- أزمته النفسية وأبعادها.

أخفق التوحيدي في الحصول على مآربه في الدنيا، فافتقد المال والجاه والتقدير، ورأى فقر أصدقائه من العلماء والفلاسفة واضطهادهم، وانهارت في نظره المثاليات، فترك هذا جميعه اثرا عميقا في نفسيته، وكان له انعكاسات على فكره ومفاهيمه. بل ان هذا في الحقيقة هو ما شكّل أزمته النفسية وبالتالي رؤيته للحياة والأحياء. لقد جعل منه الاخفاق انسانا منطويا على نفسه. وأصّل لديه مع مرور الزمن حقدا وبغضاء ومرارة ونفرة من الأحياء والمجتمع. ودعم لديه الاحساس بالكبرياء والاستعلاء. واذا التوحيدي الذي كان يبحث عن المال والجاه شاكيا صرف الزمان، يسخط على الجاه وعلى الرئاسة وعلى المال ويعتبرها مهالك الخلق، ويدعو الله أن يكره له الدنيا، ويرغبه في التقوى(١٠٢). وأخذت نظرته الى البشر تتسم بالازدراء والاحتقار، وقوي في نفسه شعور الانطواء" فقد أمسى غريب الحال، غريب النمط، غريب الخلق، متأنسا بالوحشة، قانعا بالوحدة، معتادا للصمت، ملازما للحيرة، متحملا للأذى، يائسا من جميع من أرى"(١٠٣).

وكثرت الشكوى في كتاباته، تنقل قلقه النفسي واضطرابه المادي، وتمثل القلق الانساني عامة، والاحساس بالضياع في عصر يقوم على المفارقات والظلم والاضطهاد، وأخذت كتابته تتصل أكثر فأكثر بالانسان، لتعبر عن أفكاره وهواجسه ومشاعره، وحفلت بألوان التعبير عن حياة الانسان وتجاربه وأشواق النفس الانسانية وتطلعاتها(١٠٤). ولعل هذا القلق الانساني وما يشيع فيه من حقد وثورة على الحياة والأحياء هو سر من أسرار نبوغ التوحيدي وابداعه(١٠٥).

ساءت نظرة التوحيدي في عصره وفي ولاته وفي أناسه، فانكفأ على نفسه، يمحّصها، وينقّب عما دقّ وخفي من مشاعرها، والتفت الى الذات الانسانية، فاستقرأ خبايا النفوس وصوّر خلجاتها وأخيلتها وتشوفاتها

دون خوف أو تردد(١٠٦). لم ينعم بمشاعر المودة والصداقة داخل أسرة خاصة به، وافتقد المودة داخل مجتمعه وأبناء طبقته، فعاش جوعا عاطفيا، وترسخ في نفسه ألم مضن، أخذ يبدو في تساؤلاته، لدى حديثه عن الصداقة والصديق، والعلاقات بين معاصريه، وفي تصويره للنفسيات المختلفة، في اقترابها وبعدها وتقابلها وصدها(١٠٧). وفي هذه الحيرة التي تلازمه في أحاديثه الى مسكويه في الهوامل والشوامل، وفي أحاديثه في المقابسات. وسادت كتابته مسحة تشاؤمية كئيبة تجاه العلاقات الانسانية، فساء ظنه بالأصدقاء حتى أنكر وجودهم " وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لاصديق ولا من يتشبه بالصديق"(١٠٨).

وعمت نظرته التشاؤمية في الصداقة جميع الفئات من ملوك، وأصحاب ضياع، وتجار، وأصحاب دين وورع، وكتاب وأهل علم(١٠٩). وامتدت نقمته لتشتمل العامة، فأبدى كراهيته وسخطه نحوهم - رغم أنهم كانوا يشاركونه السعي الى الرغيف - ربما كان ذلك لابتعادهم عن مستوى تفكيره، كما انهم يفوتون عليه مجالسة أهل الحكمة، فهم " همج رعاع لاعقول لهم، أولهم أشباه شبيهة بالعقول"(١١٠). ولم تلبث هذه النظرة أن أخذت تتغير في المرحلة الأخيرة من صلته بالوزراء، كما يبدو من عطفه عليهم وتقديره لمصالحهم في بلاط ابن سعدان(١١١).

وأحلّ التوحيدي صداقة العقل محل صداقة الانسان، ففي صداقة العقل سعادة ورشد ونيل وأمان، أما الصديق الانسان " فان وجدته لم يفك بما يفي به العقل، ولم يبلغ بك مابلغ العقل، وربما أتعبك، وربما خربك وربما أشقاك"(١١٢).

وكان لنفسية التوحيدي المتشائمة الساخطة أن تعبر عن سخطها واشمئزازها ويأسها عن طريق الأدب، فخرجت من التنظير الى التطبيق، ووجدت في الأدب الساخر سلاحا فاعلا، توظفه لنقل أحاسيسها ونظراتها من الوجود والأحياء والعلاقات، فأخذ في تهكمه يتلمس الخصائص الخفية الموجودة في الأشخاص باحثا عن كل مايرمز الى التدني الخلقي، ويشير الى الحطة والنذالة(١١٣) فابن شاهويه " شيخ ازراء وصاحب مخرقة، وكذب ظاهر، كثير الايهام، شديد التمويه، لايرجع الى ود صادق، ولا الى عقد صحيح، وعهد محفوظ..."(١١٤). وأما ابن مكيخا صاحب ديوان عضد الدولة فهو " أرعن خسيس، ماجاء يوما بخير قط، ولا في رأي ولافي عمل ولافي توسط، وأصحابنا يلقبونه بقفا، وهو منهمك بين اللذائذ، همه أن يتحسس دن الشراب في نفس أونفسين، ثم يسقط كالجذع اليابس لالسان ولا انسان"(١١٥). فاذا مامدح شاب مدحه شيء من الهجاء" وأما مسكويه، فلطيف الأخذ، رطب الأطراف، رقيق الحواشي، قليل السكب، بطيء السبك، مشهور المعاني، كثير التواني، شديد التوقي، ضعيف الترقي، يرد أكثر مما يصدر، ويتطاول جهده، ثم يقصر ويطير بعيدا، ويقع قريبا"(١١٦). فاذا تحدث عمن أحبهم لم تخل صوره من اللمز. " أما السلامي فهو حلو الكلام، متسق النظام كأنما يبسم عن ثغر الغمام، خفي السرقة لطيف الأخذ، واسع المذهب لطيف المغارس جميل الملابس"(١١٧).

ولعل أبعد صوره الساخرة تأثيرا، هو ماقدمه في كتابه مثالب الوزيرين، فقد حملت صوره الساخرة تحليلا رائعا للشخصية التي تحتمي وراء المنصب السامي والأعطيات، فجاء كتابه ثورة على علاقة العبودية بين الأديب ومن يفضل عليه بالانفاق(١١٨).

ويبدو أن ما جعل صور التوحيدي بعيدة

التأثير هو اعتماده الصور المادية ، ذلك أنه رأى " أن ملح هذه الخطابة ينبتر وطربها ينقص في الرواية دون مشاهدة الحال وسماع اللفظ،وملاحة الشكل في التحرك والتثني والترنخ والتهادي ومد اليد،ولي العنق ،وهز الرأس والأكتاف ،واستعمال الأعضاء والمفاصل"(١١٩). فاذا ماصور ابن عبّاد على لسان ابن العميد قال" أحس أن عينيه قد ركبتا من زئبق ،وعنقه عمل بلولب ... فانه كان ظريف التثني والتلوي ،شديد التفكك والتنقل ،كثير التعرج والتموج في شكل المرأة المومسة والفاجرة الماجنة"(١٢٠). واذا ماتحدث عن اعجاب ابن عباد بالمدح ونفاق المتزلفين قدم صورا ناطقة بهذا " فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويتبسم، ويطير فرحا،ويتقسم ... ويتشاكى، ويتحامل ،ويلوي شدقه ،ويبلع ريقه ... ويتهالك ويتمالك ويتقابل ويتمايل ويحاكي المومسات"(١٢١). فاذا ماصوّره ينشد،حرص على المزج بين ملامح الوجه وحركات الجسم ،ليوفر أكبر قدر من عناصر الاضحاك " كان الصاحب ينشد،وهو يلوي رقبته ،وتجحظ حدقته ،وينزى أطراف منكبه ،ويتشاقل ويتمايل ،كأنه الذي يتخبطه الشيطان من المس"(١٢٢). فاذا ما تناول طريقته في السجع وتكلفه ذلك قال:" يأتي بالمسجع في اثر كلامه ،مع روية طويلة ،وأنفاس مديدة ،وحشرجة صدر ،وانتفاخ منخريه ،والتواء شدقيه ، وتعويج عنقه واللعب بعنفقته "(١٢٣). واذا كان التوحيدي قد أدرك مافي الوجه وحركات الجسم من عناصر اضحاك ،فانه أدرك أيضا ما تحمله الكلمات والجمل من عناصر ضاحكة اذا حملت معاني سخيفة وقيلت بصورة آلية(١٢٤).

وخلاصة القول ان هذا اللون من الأدب الساخر كان منفسا يبث التوحيدي من خلاله أشجانه وهمومه ،كما مكنه من أن ينفذ الى عالم النفس يستكشفها،ويتعمق أسرارها،ويظهر عيوبها أو محاسنها في بيان بعيد التأثير .

٤ ـ غربته النفسية .

فقد التوحيدي الصلة بينه وبين ذوي الجاه ،وبينه وبين العامة ،وترسخ في قرارة نفسه أن كل المقاييس الأصيلة في النظر الى الدين والخلق قد اهتزت، وحل مكانها نظرة من اللامبالاة وعدم الاكتراث . واستشرى الفساد الاجتماعي، فعم جميع الطبقات . وتعددت المذاهب، وفسد المتكلمون . وكثر الشك والارتياب بين طبقات المفكرين . وأحس احساسا قويا بأن النزعات الجديدة في النظر الى اللغة والأدب أخذت ـ بتشجيع من القائمين على الأمر ـ تحل مكان النظرات القديمة ،رغم ما في الجديد من سقوط ولحن وانحدار، ووجد أن كل محاولاته الفردية ونزعاته في تشبيت روح المحافظة وايقاف هذا المد الجارف ذهبت عبثا . لقد حاول أن يقيم ارتباطه بالناس على أساس عقلي دون تعصب لمذهب أو معتقد ،فلم يسلم من الاتهام في دينه ومعتقده،فرُمي بالكفر والزندقة والالحاد(١٢٥)، وهي تهمة أشد ايلاما من البؤس والفقر،لأنها تبغضه الى الخاصة والعامة ،وتلقي على نتاجه غبارا من الشك ،وتطوح بمكانته الأدبية والعلمية(١٢٦). والتحق بركب الفلاسفة،لعله يجد في الفلسفة شفاء لما في نفسه من تساؤلات حول المشكلات الاجتماعية والدقائق الفكرية ،فأرضته الى حين ،وفلسفت له عالمه الواقعي المؤلم ،فعرفته شرف النفس الانسانية والشعور الكامل بالمسؤولية الملقاة على عاتقه من حيث هو انسان(١٢٧)،ولكنها

عجزت عن حل سيدة المشكلات او "ملكة المسائل" عنده وهي "حرمان الفاضل وادراك الناقص" (١٢٨). ولم يستطع أساتذته من المتصوفة والفلاسفة - بمثاليتهم وتقشفهم - أن يُشبعوا حاجته حول هذه المشكلة .

ووجد التوحيدي نفسه غريبا في كل شيء، في أدبه وخلقه، في تدينه وتصوفه، في فلسفته وفنه . وأحس احساسا حادا بأنه غريب عن أهل عصره مرتفع عن زمانه، متقدم عليهم (١٢٩). وشعر بانقطاع الصلة بينه وبين الوجود، وبينه وبين الأحياء . ووجد أن كتبه هي التي تربطه بعصره وبالاحياء فيه، فانقضّ عليها، يحرقها، ويغسلها بالماء، وقلبه يتقطع ألما وحسرة (١١٠). ويعتذر الى صديقه أبي سهل علي بن محمد: عندما يلومه على ذلك برسالة (١٣١) تفيض ألما يصور شقاءه وبلواه بالناس، وسوء ظنه بهم، كما يصور فشله في الحياة، وأن علمه قد قصر عمله عنه، فمن النفاق أن تظل كتبه تدعو الى شيء لم يعمل صاحبها به . فضلا عن أنها شواهد تعذبه باظهارها الفارق بين ما أمله وماصار اليه . لقد بذل فيها عصارة نفسه، وأودع فيها كل أصناف العلم، وكان على شعور قوي بنفاستها فلم يلق من الناس جزاء . كما أنه يشق عليه أن يتركها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضه اذا نظروا فيها (١٣٢).

وأخذ التوحيدي ينخلع عن عصره وأهل عصره، ليعيش في ذاته، يمحصها ويحكم عليها فيصدق في تمحيصه، ويقسو في حكمه، ويكشف عن معاناة نفسه وخفاياها وأطوارها في تأمل صوفي "أما حالي فسيئة كيفما قلبتها، لأن الدنيا لم تؤاتني لأكون من الخائضين فيها، والآخرة لم تغلب علي فأكون من العاملين لها . وأما ظاهري وباطني، فما أشد اشتباههما، لأني في أحدهما متلطخ تلطخا، لايقربني من أجله أحد، وفي الآخر متبذخ تبذخا لايُهتدى فيه الى رشد . واما سرّي وعلانيتي فممقوتان بعين الحق، لخلوهما من علامات الصدق، ودنوهما من عوائق الرق، وأما سكوني وحركتي فآفتان محيطتان بي، لأني لم أجد في أحدهما حلاوة النجوى، ولا أعرف في الآخر من مرارة الشكوى . واما انتباهي ورقدتي فما أفرق بينهما الا بالاسم الجاري على العادة، ولا أجمع بينهما الا بالوهم دون الارادة، وأمّا قراري واضطرابي، فقد ارتَهَنَني الاضطراب حتى لم يدع فيّ فضلا للقرار، وغالب ظني أني قد عَلِقْتُ بشيء لأنه لاطمع لي بالفكاك، ولا انتظار عندي للانفكاك . وأما يقيني وارتيابي فلي يقين، ولكن في درك الشقاء، فمن يقينُه هكذا، كيف يكون خبره عن الارتياب ! (١٣٣).

وخلص التوحيدي في هذه المرحلة من مطامع الدنيا، وهدأت حاجات جسمه، واستيقظت حاجات روحه، فاتجه الى الله منقطعا اليه، وأصبح الفقر لديه محنه يختبر بها الله خلقه، ليشعرهم بنقصه، فيتضرعوا اليه . (١٣٤) وابتعد عن الذم والثلب والتحرش، ولم يعد يعرض لآراء الفلاسفة والمتكلمين والأدباء، بل اتجه الى الحمد والتقديس والانقطاع والتبتل، وسما شعوره بالحرمان المادي، ليتحول الى شعور بالحرمان من استجلاء حقيقة الحق، وتحولت الشكوى من المخلوق الى الخالق، ومن طلب القوت الى طلب المعرفة (١٣٥)، وأخذت شكل قلق نحو الاستشراق العلوي والاشراق السماوي، قلق الروح المتحفزة الى عالم الكمال والخير (١٣٦)، ودلفت نفسه الى ايمان مستسلم، فيه

مرارة اليائس وأمل الخائب "وفيه عزوف عميق عما يربطه بالعاجلة، واستدعاء متوسل لكل ماتلوح منه بوارق الآجلة، وفيه شعور بهوة هائلة تفغر فاها في نسيج الوجود، وفيه طعم الرماد يتذوقه المرء في كل عبارة واشارة". (١٣٧) وعاش التوحيدي في وحدة ذاتية مطلقة يحملها في داخل نفسه، ولم يعد الوطن المادي له معنى اذا قيس بالوطن الروحي الذي تقطنه النفوس الشاردة (١٣٨). وأخذ يتأصل لديه مفهوم الاغتراب - الذي لازمه منذ مبتدأ حياته - ليشكل لديه فلسفة أوشبه فلسفة تحمل بعدا صوفيا، فالغريب الحق ليس ذلك الذي" نأى عن وطن بني بالماء والطين، وبعُد الآف له عهدهم الخشونة واللين " وانما هو ذلك الذي طالت غربته في وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه" (١٣٩).

فالغربة الحقيقية تكمن في غربة النفس واحساسها الداخلي بالجفوة والانطواء " وقد قيل الغريب من جفاء الحبيب، وأنا أقول بل الغريب من واصله الحبيب، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب، بل الغريب من حاباه الشريب، بل الغريب من نودي من قريب، بل الغريب من هو في غربته غريب، بل الغريب من ليس له نسيب، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب" (١٤٠). والغريب في نظر التوحيدي هو من يفقد الصلة بالحياة والأحياء، فيصبح غريبا في أقواله وأعماله وادباره واقباله، ينطبق وصفه بالمحنة بعد المحنة ويدل عنوانه على الفتنة ان حضر كان غائبا، وان غاب كان حاضرا، ان رأيته لم تعرفه، وان لم تره تستعرفه (١٤١). هو من طينة مختلفة عن طينة الانسان العادي مطارد دائما مرفوض أبدا " إذا ذكر الحق هُجر، وإذا دعا الى الحق زُجر، اذا أسند كُذب واذا تظاهر عُذب ... طال بلاؤه من غير ذنب، واشتد ضرره من غير تقصير، وعظم عناؤه من غير جدوى ... اذا قال لم يسمعوا قوله، واذا رأوه لم يدوروا حوله ... اذا تنفس أحرقه الأسى والأسف، وان كتم كمده الحزن واللهف ... اذا أقبل لم يوسع له، واذا أعرض لم يسأل عنه ... اذا سأل لم يُعط، وان سكت لم يبدأ ... اذا عطس لم يشمت، وان مرض لم يُتفقد ... اذا زار أُغلق دونه الباب، وان استأذن لم يرفع له الحجاب ... اذا نادى لم يجب وان هادى لم يحب" (١٤٢) ويخلع التوحيدي على الغريب تشوفه وتطلعه ولباسه سمات الصوفيين وحالتهم" الغريب في الجملة من كله حرقة، وبعضه فرقة، وليله أسف، ونهاره لهف، وغذاءه حَزَنٌ، وعشاؤه شجن، وآراؤه ظِنَنٌ، وجميعه فتن، ومفرقه محن، وسره علن، وخوفه وطن ... الغريب من لبسته خرقة، وأكلته سلقة، وهجعته خفقة" (١٤٣).

وتلتقي فلسفته في الاغتراب التقاء تاما بآراء المتصوفة، فالغربة في حقيقتها تهالك في ذكر الله، وتوجه اليه وفناء فيه: " الغريب من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا اليه، بل الغريب من تهالك في ذكر الله متوكلا عليه، بل الغريب من توجه الى الله خاليا من سواه، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضا لجدواه " (١٤٤).

والتوحيدي في هذا اللون من أدب اغتراب النفس، يكشف عن حسه المرهف، وقدرته العجيبة على تصوير العجز الانساني، وحيرة البشرية أمام القوة الالهية الأعظم، وهو في تمحيصه لذاته وفي شكواه وتشوفه " ينفذ من الظاهر الى الباطن، فلا يتخذ من الأحداث إلّارموزا

وعلاقات على الجوهر والباطن في أعماق الوجود كله ،فالألم الذي يحياه في لحظة ،هو ألم مرفوع الى أسس السرمدية ، والانفعال الذي ينطبع في نفسه من موضوع محدود سرعان ما يفتح على الوجود الواحد بأسره " (١٤٥).

وهكذا كانت حياة التوحيدي ،رحلة آلام ،تصور مأساة الفرد في نفسه ، ومأساته في مجتمعه . ومكّنه حسه المرهف ،وشفافية نفسه من أن يعكس أوضاعه الخاصة ،وأوضاع عصره في مختلف الحالات والمراحل .

- فاذا حفل شعره بالشكوى والألم والاضطراب . فانما هو في الحقيقة ينقل القلق الانساني في عالم المتناقضات، محاولا أن يشق طريقا واضح السمات والمعالم لنفسه ولغيره .

واذا كانت حياته تاريخا لخيبة متجددة متمددة ،فقد نقل حياة عصر، وحياة أمة ،في فترة حرجة ،داخَلَ الشكُّ والغموض والتردد علماءها وأدباءها .

لقد عمّقت مأساته احساسه بمأساة جيله ،فجاء أدبه وجدانيا معبرا عن آلام نفسه وآلام أمته ،مصورا لشقاء الانسان في أموره الحياتية وشؤونه الفكرية على اختلاف العصور .

الاحـــــــالات

(١) ابن الأثير(عماد الدين) (البداية والنهاية في التاريخ) ج١١ص٢٣٢وما بعدها.

(٢) ابن الجوزي(المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) ج٨ص ٢١

(٣) التوحيديأبو حيان(أخلاق الوزيرين) ص ٨٣ .

التنوخي(نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة)ج١ص ٣٥١ .

ابن تغري بردي(النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة)ج٣ص ٢٧٣.

مسكويه (تجارب الأمم)ج٢ص ٢٠٣ .

ابن الأثيرعز الدين(الكامل في التاريخ ج٨ص ٦١٩ .

(٤) التوحيدي، أبو حيان(الامتاع والمؤانسة) ج١ص ١٨،ج٢ص ١٩٤ .

(٥) التوحيدي، أبو حيان(الامتاع والمؤانسة) ج٢ص ٢ .

(٦) الكيلاني، ابراهيم (من كتاب الامتاع والمؤانسة) ص ٩ .

كرد،محمد (أمراءالبيان)ص ٤٨٨ .

(٧) التوحيدي، أبو حيان(المقابسات)ص ٥٣ .

(٨) التوحيدي، أبو حيان(الامتاع والمؤانسة) ج١ص٧ .

(٩) ياقوت الحموي(معجم الأدباء)ج١٥ص ١٦.

(١٠)المصدرالسابق ١٥/ ١٣ .

(١١)التوحيديأبوحيان(الامتاع والمؤانسة) ٣/ ٢٢٧ .

(١٢)المصدر السابق ٢/ ١٤٣ .

(١٣)ياقوت الحموي(معجم الأدباء)١٥/ ٢٣ .

(١٤)المصدرالسابق ١٥/ ٣٧ .

(١٥)التوحيدي، أبوحيان(أخلاق الوزيرين) ص ٤٩٧ .

(١٦)التوحيدي، أبوحيان(الامتاع والمؤانسة) ج ٣ ص – ٨٥ .

(١٧) محيي الدين ،عبدالرزاق(أبوحيان التوحيدي، سيرته – آثاره)ص ٢٨ .

(١٨)التنوخي(نشوار المحاضرة) ٣٥١/١ .

(١٩)متز، آدم (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري)ج١ ص ٤١٦ .

(٢٠)التوحيدي، أبوحيان(البصائر والذخائر) المقدمة ب .

(٢١)السبكي(طبقات الشافعية)ج٣ ص ١٢ .

(٢٢)المراغي، عبد الله (الفتح المبين في طبقات الأصوليين) ص ٣٠١ .

(٢٣) ابن خلكان(وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) ج٥ ص ٢٢١ .

(٢٤) المصدر السابق ٢/ ٧٨ .

(٢٥)ياقوت الحموي(معجم الأدباء) ٨/ ١٥٠ .

(٢٦)التوحيدي، أبوحيان(الامتاع والمؤانسة) ٢٣/١، ٢٣/٢ .

(٢٧) ابن النديم (الفهرست) ص ٣٢٢ .

(٢٨)التوحيدي، أبوحيان (الامتاع والمؤانسة) ٢/ ٣٨ .

(٢٩)ياقوت الحموي(معجم الأدباء)١٥/ ٥ .

(٣٠)المصدر السابق ١٥/ ٥ .

(٣١)ينظرفي هذه المعاني ما أورده التوحيدي في(الامتاع والمؤانسة) ١/ ١٤٧، ١/ ٢٠٦ .

(٣٢)ذكرياقوت في(معجم الأدباء ١٥/ ٧) أن له تصانيف كثيرة ،ذكرمنها (١٧)تصنيفا.

(٣٣)المرجع السابق ١٥/ ٦ .

(٣٤)التوحيدي، أبوحيان(الامتاع والمؤانسة) ١/ ٢٠، ٢٩ .

ياقوت الحموي(معجم الأدباء)١٥/ ٢٩ .

والتوحيدي(الهوامل والشوامل)ص ٢٤ .

(٣٥)محيي الدين، عبدالرزاق(أبوحيان التوحيدي) ص ٣٦ .

(٣٦)الحوفي، أحمد (أبوحيان التوحيدي)ص ١٢٨

(٣٧)السبكي(طبقات الشافعية) ٥/ ٢٨٧ .

(٣٨)ياقوت الحموي(معجم الأدباء) ١٥/ ٣٦ .

(٣٩) المصدر السابق ٢١٣/١٤ .

(٤٠) الثعالبي (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) ج٣ ص ١٥٤ دار الفكر - بيروت .

(٤١) ياقوت الحموي (معجم الأدباء) ٥/١٥ .

(٤٢) التوحيدي، أبوحيان (الامتاع والمؤانسة) ٥/١ .

(٤٣) الثعالبي (يتيمة الدهر) ١٨٩/٣ .

(٤٤) التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين) ١٤١

(٤٥) المصدر السابق ٤٩٤ .

(٤٦) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٣٢/١٥ .

(٤٧) التوحيدي، أبوحيان (الامتاع والمؤانسة) ٦/١ .

(٤٨) تنظر رسالته الى ابن العميدفي (معجم الأدباء ٣٧/١٥) ورسالته الى أبي الوفاء المهندس في (الامتاع والمؤانسة ٢٢٦/٣) وينظر دفاع أحمد الحوافي عن التوحيدي في كتابه (ابي حيان التوحيدي ١٤٩) .

(٤٩) ياقوت الحموي، (معجم الأدباء) ٦/١٥ .

(٥٠) الكيلاني، إبراهيم (أبوحيان التوحيدي)

(٥١) ياقوت الحموي (معجم الأدباء) ١٤/٦، ٢١٣/١٤، ٢١٦، ٣٦/١٥، ٤٤ .

التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٢٣١) (الامتاع والمؤانسة ٨/١، ١١، ٢٤٢/٣)

(٥٢) التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ١٣)

(٥٣) المصدر السابق ٥٣١ .

(٥٤) المصدر نفسه ١١ .

(٥٥) التوحيدي، أبوحيان (الامتاع والمؤانسة ١٤/١) .

(٥٦) المصدر السابق ٩١/٢ .

(٥٧) ياقوت الحموي (معجم الأدباء ١٨/١٥)

(٥٨) التوحيدي، أبوحيان (الامتاع والمؤانسة ٣١/١) .

(٥٩) المصدر السابق ١٠٥/١ .

(٦٠) ياقوت الحموي (معجم الأدباء ١٠/١٥) .

(٦١) المصدر السابق ١٧٧/٨ .

(٦٢) المصدر نفسه ١٥٢/١٩ .

(٦٣) التوحيدي، أبوحيان (المقابسات ٢٣) .

(٦٤) البغدادي، تاريخ بغداد .

(٦٥) ابن النديم، الفهرست ٣٢٢.

(٦٦) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ١٣/١٥ .

(٦٧) التوحيدي، أبوحيان (الصداقة والصديق) ص ٢

(٦٨) مبارك، زكي (النثر الفني في القرن الرابع الهجري) ج١ ص ١٦٩ .

(٦٩) حدث هذا مع الجريري غلام ابن طرارة، ومع الجامدي الشاعر، وابي زيد الكيلاني. (أخلاق الوزيرين ١١١) .

(٧٠) المصدر نفسه ٣٣٤ .

(٧١) المصدر نفسه ٣٥٢ وينظر ص ١٣١ .

(٧٢) التوحيدي، أبوحيان (الامتاع والمؤانسة ٣١/١) .

(٧٣) التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٢٨٢)

(٧٤) المصدر نفسه ٢٨٧ .

(٧٥) التوحيدي، أبوحيان (الامتاع والمؤانسة ٢٠/١) .

(٧٦) التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٤٩١)

(٧٧) المصدر نفسه ١٦٢ .

(٧٨) المصدر نفسه ١٦٢ وينظر (الامتاع والمؤانسة ٥٨/١) .

(٧٩) التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٣٣٥)

(٨٠) المصدر نفسه ٣٨٣ .

(٨١) المصدر نفسه ١٩ .

(٨٢) المصدر نفسه ٣٥ .

(٨٣) المصدر نفسه ٧ وينظر ص ٣٣ .

(٨٤) المصدر نفسه ١٥٦ .

(٨٥) المصدر نفسه ٤٨٧ .

(٨٦) المصدر نفسه ٢٨٣ .

(٨٧) المصدر نفسه ٢٠ .

(٨٨) المصدر نفسه ٤١ .

(٨٩) المصدر نفسه ٢١ .

(٩٠) المصدر نفسه ٥٣٠ .

(٩١) المصدر نفسه ٣٤١ .

(٩٢) المصدر نفسه ١٧٣ .

(٩٣) ياقوت الحموي (معجم الأدباء ١٢/١٥) .

(٩٤) المصدر نفسه ٢٧/١٥ .

(٩٥) التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ١٢١)
(٩٦) المصدر نفسه ١٣٥ .
(٩٧) المصدر نفسه ٣٩٤ .
(٩٨) التوحيدي، أبوحيان (الصداقة والصديق ٧٧)
(٩٩) التوحيدي، أبوحيان (الامتاع والمؤانسة ٤٢/١، ٥٢/١٠) .
(١٠٠) المصدر نفسه ٢٠/١ .
(١٠١) عباس، احسان ٦٩، والحوافي، أحمد ٩٧، ومحيي الدين، عبدالرزاق ٢٨١ والأعسم، عبد الأمير دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٦ ص ٦٠ .
(١٠٢) التوحيدي، أبوحيان (الصداقة والصديق ١٩١
(١٠٣) المصدر نفسه ٨ .
(١٠٤) ابراهيم، محمود (أبوحيان التوحيدي في قضايا الانسان واللغة والعلوم) ص ٤٧ .
(١٠٥) مبارك، زكي، النثر الفني ١٦٢/٢ .
(١٠٦) ابراهيم، محمود (أبوحيان التوحيدي ٤٧)
(١٠٧) عباس، احسان (أبوحيان التوحيدي) ص ٨٥
(١٠٨) التوحيدي، أبوحيان (الصداقة والصديق ١٠)
(١٠٩) المصدر نفسه ١٠ .
(١١٠) التوحيدي، أبوحيان (الامتاع والمؤانسة ٢٠٥/١) .
(١١١) عباس، احسان (أبوحيان التوحيدي ١٧)
(١١٢) التوحيدي، أبوحيان التوحيدي (الصداقة والصديق ١٦١) .
(١١٣) الكيلاني، ابراهيم (أبوحيان التوحيدي ٦٧) .
(١١٤) التوحيدي، أبوحيان (الامتاع والمؤانسة ٤٣/١) .
(١١٥) المصدر نفسه ٤٤/١ – ٤٥ .
(١١٦) المصدر نفسه ١٣٦/١ .
(١١٧) المصدر نفسه ١٣٤/١ .
(١١٨) عباس، احسان (أبوحيان التوحيدي ٧٠)
(١١٩) ياقوت الحموي (معجم الأدباء ٢١٣/٦) .
(١٢٠) المصدر نفسه ٢٠١/٦ .
(١٢١) التوحيدي، أبوحيان (الامتاع والمؤانسة ٥٩/١) .
(١٢٢) التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ١٠٣)
(١٢٣) ياقوت الحموي (معجم الأدباء ٣٦٥/٦) .
(١٢٤) الكيلاني، ابراهيم (أبوحيان التوحيدي ٧٢ ومابعدها) وينظر أبوحيان التوحيدي في (أخلاق الوزيرين ١٢٢) وياقوت الحموي (معجم الأدباء ١٩٩/٦، ٢١٣) .
(١٢٥) ينظر رأي الذهبي في اتهامه في طبقات الشافعية للسبكي ودفاع السبكي عنه ٢٨٧/٥ .
(١٢٦) الحوافي، أحمد (أبوحيان التوحيدي ١٦٧)
(١٢٧) عباس، احسان (أبوحيان التوحيدي ١٠٥ ومابعدها) .
(١٢٨) أبوحيان التوحيدي ومسكويه، (الهوامل والشوامل ٢١٣) .
(١٢٩) متز، آدم، (الحضارة الاسلامية ٤١٦/١) .
(١٣٠) ياقوت الحموي، (معجم الأدباء ١٧/١٥)
(١٣١) المصدر نفسه ١٩/١٥ – ٢١ .
(١٣٢) التوحيدي، أبوحيان (الاشارات الالهية) ص ٢٣ .
(١٣٣) التوحيدي، أبوحيان (الاشارات الالهية ٦)
(١٣٤) التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٣٠٥)
(١٣٥) محيي الدين، عبدالرزاق (أبوحيان التوحيدي ٢٣٣) .
(١٣٦) عباس، احسان (أبوحيان التوحيدي ١١٩) .
(١٣٧) التوحيدي، أبوحيان (الاشارات الالهية ٣٤)
(١٣٨) المصدر نفسه ١٤ .
(١٣٩) المصدر نفسه ١١٣، ١١٥ .
(١٤٠) المصدر نفسه ١١٤ .
(١٤١) المصدر نفسه ١١٤ .
(١٤٢) المصدر نفسه ١١٥ .
(١٤٣) المصدر نفسه ١١٦ .
(١٤٤) المصدر نفسه ١١٦ .
(١٤٥) المصدر نفسه – المقدمة ١٦ .

المصـــادر والمـــراجــع

- إبراهيم، محمود أبو حيان التوحيدي في قضايا الانسان واللغة والعلوم
الدار المتحدة للنشر – بيروت ١٩٧٤م .
- ابن الأثير (عزالدين أبو الحسن علي بن محمد) الكامل في التاريخ .
دار صادر بيروت ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م .
- ابن الأثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل) البداية والنهاية في التاريخ
مطبعة السعادة بمصر ١٣٥١هـ ١٩٣٢م .
- الأعسم، عبد الأمير أبو حيان التوحيدي في كتابه المقابسات .
دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ١٩٨٦
- البغدادي، (أبو بكر أحمد بن علي) تاريخ بغداد
دار الكتاب العربي – بيروت (بدون تاريخ)
- ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة .)
لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة (بدون تاريخ) .
- التنوخي (أبو علي المحسن بن علي) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة
مطبعة صادر – بيروت ١٩١٧م .
- التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد)
  - الاشارات الالهية، وكالة المطبوعات الكويت ط١ ١٩٨١م .
  - أخلاق الوزيرين، مطبوعات المجتمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٥م تحقيق محمد بن تاويت الطبخي .
  - الامتاع والمؤانسة، منشورات مكتبة الحياة – بيروت تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين (بدون تاريخ).
  - البصائر والذخائر، دمشق ١٩٦٤م تحقيق إبراهيم الكيلاني .
  - الصداقة والصديق، المطبعة النموذجية بمصر ١٩٧٢م تحقيق علي متولي صلاح .
- الهوامل والشوامل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١م تحقيق أحمد أمين وسيد أحمد صقر .
- الثعالبي(أبومنصورعبدالملك بن إسماعيل) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر
دار الفكر – بيروت ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
- ابن الجوزي (أبوالفرج عبد الرحمن بن علي) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم
مطبعة دائرة المعارف العثمانية – حيدر أباد ١٣٥٩هـ
- ابن خلكان (ابو العباس شمس الدين) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
دار صادر بيروت ١٩٦٩م تحقيق إحسان عباس
- السبكي (تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب) طبقات الشافعية ،
مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو .
- عباس إحسان ، أبو حيان التوحيدي
مطبعة جامعة الخرطوم ١٩٨٠م .
- كرد ، محمد ، أمراء البيان
دار الامانة – بيروت ١٩٦٩م
- الكيلاني ، إبراهيم أبو حيان التوحيدي
دار المعارف – بيروت ، مصر سلسلة نوابغ الفكر العربي ١٩٥٧م .
من كتاب الامتاع والمؤانسة ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق ١٩٧٨م .
- مبارك، زكي ، النشر الفني في القرن الرابع الهجري
دار الجيل – بيروت ١٩٧٥م.
- متز، آدم الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري

ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة .
لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة
١٩٤١م .

ـ محيي الدين ،عبدالرزاق أبوحيـــــان التوحيدي ،سيرته ـ آثاره
المؤسسة العربية للدراسات والنشـــــر ـ بيروت ١٩٧٩م

ـ مسكويه (أبوعلي أحمدبن محمد) تجـــارب الأمم ،شركة التمدن الصناعية بمصر١٣٣٣هـ ١٩١٥م .

ـ الهوامل والشوامل،تحقيق أحمد أمين وسيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١م .

ـ ابن النديم (أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب)
الفهرست ،تحقيق رضا ـ تجدد طهران١٣٩١هـ ١٩٧١م

ـ ياقوت (أبو عبد الله) معجم الأدباء
دار احياء التراث العربي ـ بيروت ١٩٢٢م
تحقيق أحمد فريد الرفاعي .